تفسير

سورة عبس

تفسير سورة عبس

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

جملة القول في عمود السورة وموقعها وربطها بما قبلها

لا يخفى أن هذه السورة من النذر. وكان الإنذار أهم مطالب أول الدعوة، ومع ذلك تتنوع وجوه البيان. ففي هذه السورة بني الكلام على كف النبي ﷺ عن إضاعة الوقت بالذين أصروا على كفرهم وعصيانهم. ومن ههنا يعطف وجه المقال.

(أولا) إلى تشنيع هؤلاء المصرين.

و(ثانيا) إلى ذكر الدلائل على شناعة استغنائهم.

و(ثالثا) إلى ذكر مآل أمرهم و (آخرا) على طريق المقابلة ذكر الذين هم خلاف هؤلاء. لأن الشئ يتبين بضده، وليجمع الترغيب، ولكي يبين للنبي أن الاشتغال بالمؤمنين أقدم وأولى.

وقد ختم السورة السابقة بقوله: ﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾ [سورة النازعات/٤٥]. فبين في هذه السورة أنك غير مأمور بالإلحاح على الذين لا يخشون. و لما علم الله أن النبي عليه الصلاة لغاية رأفته لا يكاد يملك نفسه عن الإلحاح أكثر في القرآن من النهي عنه على طرق شتى. ولما أن القرآن ينتظر الوقائع المناسبة لتعليم الأمور، فأخذ واقعة الأعمى سببا لصرف النبي ﷺ عن الإصرار الذي لا يليق بشأنه. فأخرج الكلام مخرج التنبيه والعتاب بحسب الظاهر. والمقصود مما جاء في القرآن

من الأمر بالإعراض عن المنكرين هو زجرهم وتشنيع أمرهم. وذلك أسلوب من إتمام الدعوة.

ولا خفاء على ما ذكرنا من تأويل هذه السورة عند المتوسم البصير. ولكن زل فيه القلم من بعض المفسرين – عفا الله عنهم – كما سيأتيك بيانه في الفصول الآتية. فلنقدم قولا وجيزا في عظيم خلق الأنبياء، والوجه الصحيح لما يخاطبون به على أسلوب العتاب.

(٢)

في عظيم خلق الأنبياء وعصمتهم وموقع العتاب بهم

قد علمنا بصريح العقل والنقل أن الله تعالى يصطفي للرسالة أكرم الناس وأتقاهم كما قال تعالى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ [سورة الأنعام/١٢٤]. وقال في نبينا: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [سورة القلم/٤]. اذكر الخبر الذي جاء في الصحيحين عن وزن النبي ﷺ بكفة وجميع الناس بكفة حتى إذا رجحهم أعطى الرسالة.

ثم بعد اصطفائهم يصرفهم الله كيف يشاء، فيأمرهم وينهاهم ويعلمهم ما لم يعلموا. فكأنهم بين إصبعيه، ويمشون بين يديه كما قال تعالى: ﴿فإنك بأعيننا﴾ [سورة الطور/٤٨]، وقال تعالى: ﴿فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شئ عددا﴾ [سورة الجن/٢٧-٢٨]. فهذا بيان لنظره الخاص إلى رسله. وأنه تعالى يعصم رسوله عن كل زيغ و يتداركه قبل أن يقع فيه. فإذا جرى في سمت خطر لا يمهله إلا ريثما يتم فرض نبوته ويفرغ سجل قوته حسب سنة الله وحكمته في خلقه. فإنه يبتلى عباده ويخرج ما في سرهم.

وعلى هذا فإذا رأى بين يدي رسوله معثرة نبهه. وربما نهاه بجهير الصوت وأسلوب العتاب إذا وجده يذهب غارزا رأسه لكي ينتبه، ولكي يعلم فظاعة المنهي عنه، ولكي يتذكر أنه لولا الله لعثر. فيشكر ربه ويتذلل أمامه ويزداد قربا منه والتصاقا به كرضيع تخوفه أمه فيلتصق بلبانها.

فتبين مما ذكرنا أن الأنبياء بين حسنيين. فإن الله تعالى نقاهم عن أوضار الهوى، فلا يعمدون إلا إلى مرضاة الله إلا أنهم ربما يفرطون في جانب فيردهم ربهم إلى حاق الجادة. وذلك لأن النبي كالأصل لأمته. كأنهم شقوا من نبعه وجبلوا على طبعه، وهم مأمورون باقتفاء آثاره واقتباس أنواره. فأدنى إفراط منه إزاغة لجميع الأمة.

وأما سبب إفراطهم فلا يخفى أنهم لا يعلمون من سرائر الناس نهاية غورها، فلا يقطعون الرجاء من إصلاحهم. فيجاهدون بهم كطبيب آس وحميم مواس حتى يتبين لهم أنهم أعداء الله. فحينئذ يتبرأون منهم، كما أخبر الله عن إبراهيم عليه السلام: ﴿فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾ [سورة التوبة/١١٤]. وكذلك ربما يقع أن النبي قد قطع الرجاء لما ظهر عليه من تمردهم، ومع ذلك فيهم مطمع كما وقع ليونس عليه السلام. وذلك بأن الله تعالى وحده عليم بما تكن الصدور. فربما يأمرهم بالإعراض والاستغناء، وربما يثبتهم على المجاهدة بهم.

وجملة الكلام أن الله تعالى يصرف نبيه كيف يشاء، فتارة يمنعه عن رحما وضعها غير موضعها وأخرى يثبته على الصبر واحتمال الأذى. والعتاب على الأول دليل على كمال رحمته، وعلى الثاني دليل على كمال غيرته في جنب الله. وهو في كلتا الحالتين برئ عن هوى النفس و الزيغ الباطل.

﴿عبس وتولى (١) أن جاءه الأعمى (٢) وما يدريك لعله يزكى

(٣) أو يذكر فتنفعه الذكرى (٤) أما من استغنى (٥) فأنت له تصدى (٦) وما عليك ألا يزكى (٧) وأما من جاءك يسعى (٨) وهو يخشى (٩) فأنت عنه تلهى (١٠)﴾.

(٣)

تفسير الكلم وتأويل الجمل في آيات: (١-١٠)

(عبس) كلح لكراهية أمر. ويبينه: (وتولى) أي أعرض.

(أن جاءه) أي لأن جاءه وهذا ذكر سبب العبوس. فإن سبب الكراهية في ذلك الوقت كان مجيئه لا نفسه، كما ستعلم.

(الأعمى) اتفقوا على أنه ابن أم مكتوم. عبر عنه بهذا الوصف للدلالة على ضعفه واحتياجه وعدم اطلاعه على ما كان فيه النبي ﷺ من الشغل، وما كان مقتضى الحال.

(وما يدريك لعله يزكى) مفعول (ما يدريك) محذوف، وأقيم مقامه: (لعله يزكى) لدلالته عليه بالمقابلة، كما في قوله تعالى: ﴿وما يدريك لعل الساعة قريب﴾ [سورة الشورى/١٧]. أي ما يدريك أن الساعة بعيد فلعلها قريب. وكذلك قوله تعالى: ﴿وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا﴾ [سورة الأحزاب/٦٣].

فتأويل الآية: كيف العلم لك أنه لم يجئ لما يسرك من التزكي أو التذكر، حتى استحييت من الكفار أن يقولوا: إنما يتبعه العميان وضعفاء الناس لسفاهة عقولهم، أو لما يطمعون من محمد لرحمته بهم، أو كيف نتبعه حتى نكون معهم، كما جاء في القرآن كثيرا في ذكر أقوالهم.

وهذا صريح في أن النبي ﷺ لم يعلم من الأعمى أنه جاء للتزكي أو

التذكر. وإنما كان سبب الكراهية محض مجيئه الذي كان مظنة لما ذكرنا.

وأما ما روى أنه سأل النبي ﷺ أن يعلمه القرآن فتولى عنه[١٣٢] فغير ثابت من طريق الرواية[١٣٣]، فكيف والقرآن صريح في خلافه. وسيأتيك بيانه.

قوله:**(يزكى)** أي يتطهر من صحبة النبي ودعائه، فتقبل توبته ويصلح باله

(يذكر) أي ينتفع بما يسمع من القرآن وعظة النبي.

(استغنى) أي عن التزكي والتذكر والإنابة والخشية، كما دل عليه ما قبله وبعده بالمقابلة، فاكتفى به.

(تصدى) أصله تتصدد، من الصدد وهو القبالة. يقال داري بصدد داره. تصدى: أي تعرض، وهو ضد تولى.

(وما عليك ألا يزكى) أي ليس عليك بأس أو حرج أو لوم من عدم طلبه للتطهر.

(يسعى) أريد به المجيء بالشوق على سبيل الكناية. وليس المراد به الإسراع بالقدم لدلالة الموقع، وكما يبينه قوله: ﴿وهو يخشى﴾ [الآية/٩]. وهذا مثل ما مر في قوله تعالى: ﴿فاسعوا إلى ذكر الله﴾ [سورة الجمعة/٩].

(يخشى) جامع عام لإطلاقه. وفيه النظر إلى يوم القيامة لما مر في

---

١٣٢ قد جاء في روايته عن ابن عباس ﷺ أن "....عبد الله (ابن أم مكتوم) يستقرئ النبي ﷺ آية من القرآن وقال يا رسول الله علمني مما علمك الله فأعرض عنه ..." انظر الطبري ٣٠: ٣٣ .

١٣٣ قال ابن كثير في هذه الرواية: "فيه غرابة ونكارة وقد تكلم في إسناده" انظر تفسيرابن كثير ٤: ٤٧٢ .

السورة السابقة: ﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾ [سورة النازعات/٤٥].

(تلهى) أي تتلهى. تلهى عنه: اشتغل عنه. من قولهم: ألهاني عنه ذلك: أي شغلني عنه، فما اعتنيت به.

قال عتبة بن بجير:

لحافي لحاف الضيف والبيت بيته ... ولم يلهني عنه غزال مقنع

(٤)

موقع هذه الآيات وتصوير قصتها

موقع هذه الآيات منع النبي ﷺ عن إضاعة الوقت بالمصرين على الكفر، وحثه على التزام المؤمنين. وبيان ذلك أن الله تعالى أمره بتقديم الدعوة لرؤساء قومه الذين كانوا ذوى الرئاسة الدينية، وبالإعراض عنهم إذا تبين إصرارهم على الكفر ؛ وبالتزام من تبعه من الناس، كما قال تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فإن عصوك فقل إني برئ مما تعملون. وتوكل على العزيز الرحيم. الذي يراك حين تقوم. وتقلبك في الساجدين.﴾ [سورة الشعراء/٢١٤-٢١٩].

فاشتغل النبي ﷺ بدعوتهم، وقد رأى منهم شدة الأنفة والكبرياء. وكان ﷺ من شدة رحمته يصبر على ذلك ويرجو أن ينتفعوا بوعظه. فكان كلما زادوا جماحا زاد إلحاحا، رحمة بهم وشفقة عليهم، وإيفاء بفريضة الرسالة العظمى الخاتمة المتممة، ورجاء أن يعز الإسلام بإيمان الأقوياء ذوى الباس والنجدة- وقد صدق ظنه بإيمان أبي بكر وعمر وحمزة وآخرين من السابقين الأولين، وخوفا من أن يكون قد قصر في الجهاد والصبر فيما فرض عليه.

ولكن لما كان في ذلك بعض شغل عن الذين هم أحق بعنايته،

وتنزل عن سمو محله، فإن الله تعالى لم يأمره بالخضوع بل أرسله بالعز الشامخ والشرف الباذخ، ومن الله تعالى كثيرا ما يصرفه عن الأسف لهم والإلحاح عليهم إلى الاشتغال بالصالحين، كما قال تعالى: ﴿لعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾ [سورة الكهف/٦]. وكما قال تعالى: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة و العشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا﴾ (أي أهل العدة والعدد، كما قال تعالى: ﴿المال والبنون زينة الحيوة الدنيا﴾ [سورة الكهف/٤٦] فإن القوة لله تعالى) ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا. وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ [سورة الكهف/٢٨-٢٩]. وكما قال تعالى: ﴿فتول عنهم فما أنت بملوم﴾ [سورة الذاريات/٥٤]. أي لا لوم عليك إن لم يؤمنوا، فانك قد أوفيت بما كان يجب عليك. ومثله كثير.

ومما ذكرنا يتبين أن الله تعالى كلما وجد نبيه قد غلا في هذا المنهج أوحى إليه بعض ما يصرف عنانه إلى التوسط، حتى وقعت هذه قصة عبد الله بن أم مكتوم، والوحي ينتظر الوقائع المناسبة. فجعلها الله سببا لزجر الأغنياء ومدح الفقراء وتطييب المنكسرى القلوب بأبلغ ما يكون من أساليب الكلام. فأنزل على نبيه ما كان غاية في التنبيه على إفراط في الدعوة، والزجر للمصرين على كفرهم.

وصورة الواقعة: أنه لما جاء إليه ابن أم مكتوم خاف النبي ﷺ أن يقولوا إنما يتبعك العميان والضعفاء لما تعينهم وتسحر عقولهم، أفتريد أن تخلطنا بهم، كلا لن نتبعك أبدا إلا أن تطرد هؤلاء فإنهم ليسوا بأكفائنا. وقد صرحوا بذلك كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿قالوا أنؤمن كما آمن

السفهاء﴾ [سورة البقرة/١٣] وكما فصل ذلك حيث قال تعالى: ﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون. ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، ما عليك من حسابهم من شئ وما من حسابك عليهم من شئ فتطردهم فتكون من الظالمين. وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين. وإذا جاءك الذين يؤمنون بآيتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة، أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم﴾ [سورة الأنعام/٥١-٥٤]. وقال تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين. إنا كفيناك المستهزئين. الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون. ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾ [سورة الحجر/٩٤-٩٧].

ومما يخاف من مجيء عبد الله بن أم مكتوم في ذلك المجلس أن يذل أصحابه في عيون المنكرين. فإن النبي ﷺ لسعة جوده ورأفته بالناس كان يحفه الضعفاء. والنبي ﷺ من شدة غيرته وحيائه لم يكن ليرضى بما يطعنون في أصحابه الذين آمنوا ابتغاء لوجه ربهم، لا لطمع دنياوي. فلما وقع هذا الأمر حان أن يبين الله لنبيه أنه قد بلغ من الغلو في الدعوة ما لا ينبغي له، وأخرج الكلام مخرج العتاب حسب الظاهر. ولكنه في الحقيقة زجر للكافرين، وثناء على النبي ﷺ، وتطييب لقلوب المؤمنين.

والنبي في هذا الخطاب مثله مثل راع صالح خرج في طلب خروف سمين شريد حتى ذهل ساعة عن قطيعته الصالحة التي تتبع أثره وتسمع نداءه. فإن لم يكن هذا الشريد أجدر برأفته من سائر الغنم، فالذنب له لا للراعي الشفوق. فإن خاطبه مالك الغنم يعاتبه: مالك قد ضربت الصفح

عن القطيعة الصالحة وتتهالك على خروف غير طائل، دعه يأكله الذئب فإنه أولى به. علم كل ذي عقل أن هذا العتاب وإن كان بحسب الظاهر متوجها إلى الراعي ولكنه في الحقيقة سخط بالخروف الأحمق، ومدح للقطيعة الصالحة، ودليل على شدة رأفة الراعي وغلوه في طاعة مالكه.

وهذا المعنى مع ظهوره، ودلالة باقي الكلام عليه قد التبس على بعض المفسرين، فتوهم أوهاما تخالفها نفس هذه الآيات. والآن نبين ذلك بتوفيق الله تعالى.

(٥)

إزاحة باطل توهموه في القصة وفي وجه العتاب

روي عن مجاهد قال: "كان النبي ﷺ مستخليا بصنديد من صناديد قريش وهو يدعوه إلى الله وهو يرجو أن يسلم إذ أقبل عبد الله ابن أم مكتوم الأعمى. فلما رآه النبي ﷺ كره مجيئه وقال في نفسه يقول هذا القريشي إنما أتباعه العميان والسفلة والعبيد فعبس فنزل الوحي عبس وتولى إلى آخر الآية" فهذا تأويل مجاهد هو الظاهر من القرآن كما قد مناه في الفصل السابق.

ولكن آخرين توهموا في القصة أن ابن أم مكتوم جاء إلى النبي ﷺ وسأله الرشد والتعليم، فأعرض عنه فعاتب الله النبي ﷺ. ونسبوا هذا القول إلى المشاهير من السلف. فمنهم من يروى عن عائشة رضي الله عنها أن ابن أم مكتوم قال للنبي ﷺ: أرشدني ؛ وعنده رجل من عظماء المشركين[١٣٤]. ومنهم من يروى عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان في مجلس من وجوه قريش، منهم أبو جهل وعتبة بن ربيعة. ومنهم

---

١٣٤ انظر الطبري ٣٠: ٣٢ وابن كثير ٤: ٤٧١ .

من يروى عن ابن عباس أنه كان يناجي عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبا الجهل بن هشام فجاءه ابن أم مكتوم يستقرئه آية من القرآن وقال علمني مما علمك الله، فأعرض عنه وعبس في وجهه وتولى وكره كلامه١٣٥. ومنهم من يروى عن الضحاك أن النبي ﷺ لقي رجلا من أشراف قريش فأتاه ابن أم مكتوم فجعل يسأله عن أشياء من أمر الإسلام. ومنهم من يروى عن عائشة رضي الله عنها أنه أتى النبي ﷺ وعنده عتبة وشيبة. ومنهم من يروى عن أبي مالك أنه كان يتصدى لأمية بن خلف. ومنهم من يروى عن أنس رضي الله عنه أن ابن أم مكتو اء إلى النبي ﷺ وهو يكلم أبي ابن خلف فأعرض عنه ١٣٦.

ولا يخفى أن هذه الروايات كلها تنتهي إلى الذين لم يكن واحد منهم شهد الواقعة. فلو صحت لم يكن إلا استنباطا، لا خبرا. والظاهر من اختلاف هذه الروايات أنها ظنون وأوهام ناشئة مما توهموا من التأويل، فوضعوا له قصة وخبرا افتراء على من أسندوها إليه. فكيف يوثق بها وأسانيدها ضعيفة جدا. والقرآن ظاهر الدلالة على كذبها، وذلك بوجوه:

الأول: أن الآية لا تقول إنه ﷺ عبس من الأعمى أو عبس في وجهه كما قيل. وهل يحس الأعمى بالتعبس ؟ إنما تعبس على مجيئه الذي كان مما يطلق ألسنة هؤلاء المفحمين فيجدون للمقال مجالا، ولم يكن لهم أن ينبسوا بكلمة حين كان يقرعهم بالدلائل الواضحة على التوحيد والمعاد وترك الأنداد، كما جاء في السورة. وهي الأمور التي كان يدعو إليها حين نزول السورة.

---

١٣٥ انظر تفسير الطبري ٣٠: ٣٣ ، وابن كثير ٤: ٤٧٢ .

١٣٦ تفسير ابن كثير ٤: ٤٧١ .

والثاني: أن قوله تعالى: ﴿وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى﴾ صريح في أنه عليه الصلاة لم يعلم أن الأعمى جاء إليه ليطهر قلبه أو ينور عقله بالذكر. فإن النبي ﷺ لو علم بذلك لالتفت إليه بالبشاشة. فكأنه قيل له لقد ضقت ذرعا بأن جاءك بما تكرهه ؛ وما يدريك ذاك لعله جاء بما تقر به عينك. وبالجملة فالقرآن يأبى أن يكون النبي ﷺ قد علم بأن الأعمى جاء لأمر ديني من التزكى أو التذكر ثم عبس له.

والثالث: أن قوله تعالى: ﴿وما عليك ألا يزكى﴾ [الآية/٧] صريح في أن النبي ﷺ كان قد غلا في أمر الدعوة. كأنه قيل له ليس عليك حرج لأجل أنهم لا يتزكون حتى لا تزال بهم إلى أن يؤمنوا فيتزكوا. ولذلك نظائر كثيرة، مثلا قوله تعالى: ﴿لست عليهم بمصيطر﴾ [سورة الغاشية/٢٢]. وقوله تعالى: ﴿فتول عنهم فما أنت بملوم﴾ [سورة الذاريات/٥٤]. وقوله تعالى: ﴿فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين﴾ [سورة النحل/٨٢]. وأسلوب هذا القول ظاهر في التخفيف عن النبي ما تحمل من المجاهدة بالمنكرين. وذلك بمعزل بعيد عن حقيقة العتاب الذي يخشى لو أعرض النبي استحقارا لمؤمن ضعيف كما توهموا. وهذا الكلام بعد قوله تعالى: ﴿أما من استغنى فأنت له تصدى﴾ [الآيتان /٥-٦]. يبين أن تصديه كان من ولوعه بالدعوة، لا لاستكبار في نفسه من الضعفاء.

والرابع: أن ما بعد هذه الآيات، وهو قوله تعالى: ﴿كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره﴾ [الآتيان/١١-١٢] صريح في تعليم الاستغناء عن الذين استغنوا عن ذكر الله، وفي منع النبي ﷺ عن التنازل إلى هذا القدر من الالتفات إليهم. وهكذا ما بعدها، وهو قوله تعالى: ﴿أما من جاءك يسعى

وهو يخشى فأنت عنه تلهى﴾ [الآيات/٨-١٠] يبين أن هذا التلهي والتشاغل لم يكن مما ينبغي لقدر نبيه الكريم وكتابه العزيز، كما سيأتيك بيانه.

والخامس: أنه ليس ههنا موقع للعتاب الحقيقي على تسليم ما رووه من أن الأعمى كلم النبي ﷺ يستقرئه القرآن أو يسأله الرشد أو عن أشياء من أمر الإسلام، كما يتبين مما نذكره في الفصل الآتي.

وبالجملة إذا نظرت في نفس هذه الآيات وما قبلها وما بعدها تبين لك أن الكلام ليس إلا لتعليم النبي ﷺ الاستغناء والترفع حسبما يليق بعزته وعزة دعوته. وأسلوب العتاب ههنا أبلغ ما يكون في منعه عن الإفراط في أداء فريضة الدعوة، وفي تطييب نفسه ونفوس الضعفاء من المؤمنين، وفي زجر الأغنياء من المنكرين، كما سيتضح كل الاتضاح من النظر فيما يتلو من باقي السورة.

(٦)
إزاحة باطل أكبر مما سبق

بعد ما تبين التأويل الصحيح الصريح لم تبق حاجة إلى ذكر ما بني على محض التوهم. لكن أردنا أن نريك شناعة ما يجر إليه الاعتماد على الروايات الباطلة، لتكون على حذرك منها. فاعلم أن الإمام الرازي رحمه الله قد تفطن بأن ههنا لم يكن موقع للعتاب فاجتهد للجواب فقال ما خلاصته:

كيف عاتب الله رسوله على ما صدر منه فإن ابن أم مكتوم كان يستحق التأديب والزجر.

١- فإنه وإن كان أعمى ولكن كان يسمع مخاطبة النبي أولئك

الكفار. فعرف شدة اهتمام النبي ﷺ بشأنهم. فكان إقدامه على قطع كلام النبي وإلقاء غرضه في البين إيذاء للنبي ﷺ وذلك معصية [١٣٧].

٢- ثم إن الأهم مقدم. وهو كان قد أسلم وتعلم ما كان يحتاج إليه. أما أولئك الكفار فيكون إسلامهم سببا لإسلام جمع عظيم فأقدم ابن أم مكتوم على ما يكون سببا لقطع الخير العظيم.

٣- ثم أنه تعالى قال: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ فنهاهم عن مجرد النداء في غير وقته. فهذا نداء ابن أم مكتوم الذي كان كالصارف عن أعظم مهمات النبي أولى بأن يكون ذنبا.

٤- ثم من الظاهر أن النبي كان مأذونا بتأديب أصحابه وكان يزجرهم عن أشياء فكيف عاتبه الله على ما كان مأذونا فيه.

قال رحمه الله: "فهذا جملة ما يتعلق بهذا الموضع من الإشكالات".

ثم قال رحمه الله ما خلاصته:

إن الجواب من وجهين:

الأول أن الأمر وإن كان على ما ذكرتم إلا أن ظاهر الواقعة يوهم تقديم الأغنياء على الفقراء فلهذا السبب حصلت المعاتبة. أقول وهذا الوجه سليم من القبح ولكنه ضعيف. فإن الله تعالى أعلم بالسرائر ولا يعاتب إلا للنهي. فهل نهي النبي عن تأديب أصحابه، كما ذكر في السؤال، وهو مأذون فيه.

قال: (والثاني) "لعل هذا العتاب لم يقع على ما صدر من الرسول ﷺ

---

١٣٧ انظر التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي ٣١: ٥٤- ٥٥ (الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي، بيروت).

من الفعل الظاهر، بل على ما كان منه في قلبه، وهو أن قلبه قد مال إليهم بسبب قرابتهم وشرفهم وعلو منصبهم. وكان ينفر طبعه عن الأعمى بسبب عماه، وعدم قرابته، وقلة شرفه. (رحم الله الرازي، كانت أم مكتوم عمة خديجة رضي الله عنها وناهيك به شرفا وقرابة لابنها) فوقعت المعاتبة لا على التأديب بل لأجل هذه الداعية" ١٣٨.

أقول: وهذا الوجه في غاية الشناعة. أينتفر النبي ﷺ عن الأعمى لعماه، بل هو أولى بالرحمة والأسى. لعمرك هذا بعيد عن مومن، فكيف بنبي؟ فانظر كيف اهتدى الرازي رحمه الله أولا لما هو الحق الصريح، وهو أنه هناك لا وجه للعتاب على النبي ﷺ. ولكن اعتماده على الروايات الضعيفة أورده هذا المورد الشنيع. فلئن نزه جانب الرب تعالى عن العتاب في غير محله فقد دنس جانب رسوله بما نسب إليه ما أقله لا يظن بخلقه العظيم.

وبالجملة فالقرآن، وموقع الكلام، وأحوال النبي كلها يبطل ما توهموا من التأويل وذكروا من الروايات الباطلة الضعيفة.

(٧)

نظم هذه الآيات بما يتبعها

لما كان موقع هذه الآيات تنبيه النبي على علو منصبه، لكيلا يتنازل إلى الإلحاح على الذين أظهروا الاستغناء حتى يشتغل عن الذين يبتغون وجه ربهم. أكد هذا الأمر ببيان علو ما أنزل إليه ليعلم أن الاستغناء عن هؤلاء هو الأنسب. فقال عز من قائل حكيم:

﴿كلا إنها تذكرة (١١) فمن شآء ذكره (١٢) في صحف مكرمة

---

١٣٨ التفسير الكبير ٣١: ٥٥ .

(١٣) مرفوعة مطهرة (١٤) بأيدي سفرة (١٥) كرام بررة (١٦) قتل الإنسان مآ أكفره (١٧) من أي شئ خلقه (١٨) من نطفة خلقه فقدره (١٩) ثم السبيل يسره (٢٠) ثم أماته فأقبره (٢١) ثم إذا شاء أنشره (٢٢)﴾.

(٨)

تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات: (١١-٢٢)

(كلا) تأكيد لما تقدم من الإنكار على غلو النبي في الدعوة، ومن تعليمه الاستغناء. كأنه قيل لا يليق بك أن تلح عليهم بهذا الإلحاح، كما يبينه ما بعده.

(إنها تذكرة) الضمير راجع إلى ما تقدم من كلمة "الذكرى". والمراد بها القرآن وآياته وتلاوته. وإنما اختار الضمير المؤنث لرعاية ما سبق من كلمة "الذكرى" وما لحق من كلمة "التذكرة". والجملة موقعها ذكر الدليل لما دل عليه كلمة "كلا" من تعليم الاستغناء.

(فمن شاء ذكره) أي ذكر ما تلوت عليهم من الذكر. واختار الضمير المذكر لما يتبادر إليه الفهم من المراد به، وهو القرآن. وموقع الجملة بيان قوله تعالى: ﴿إنها تذكرة﴾ [الآية/١١]. أي القرآن محض البلاغ والتذكرة، وليس في شئ من الإكراه والإلحاح كما جاء كثيرا في القرآن. وفي هذه الجملة إيجاز واكتفاء بما دلت عليه بالمقابلة. أي فمن شاء ذكره ومن شاء لم يذكره. وربما يصرح به، كما في قوله تعالى: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ [سورة الكهف/٢٩].

(صحف) الصحف جمع صحيفة وهي الورقة المكتوبة، كما سميت

"صحيفة المتلمس" ١٣٩ و"صحيفة الجور" ١٤٠. ولعل الكلمة مقلوبة من "الصفيحة": لكل عريض كصفيحة الحجر، والسيف والعنق. وبصيغة الجمع ربما يراد بها الكتاب لاشتماله على الأوراق، كما في قوله تعالى: ﴿رسول من الله يتلو صحفا مطهرة﴾ [سورة البينة/٢].

قوله تعالى: ﴿في صحف﴾ أي هو في صحف. وموقع الجملة بيان أوصاف ما تقدم. وحذف المسند إليه في ذكر الأوصاف التابعة هو الأسلوب المعروف. وقد جاء في القرآن كثيرا. وذكرنا الشواهد فلا نعيده ههنا.

وهذه الأوصاف صريح الدلالة على ما ذكرنا من التأويل من أن منزلة القرآن أرفع جدا من أن تعرضه على هؤلاء بهذا الإلحاح. فهذه الجمل تأكيد لما دل عليه ما سبق من الاستغناء، وموقعها ذكر الدليل على لزوم الاستغناء. كما قال تعالى: ﴿وتولوا واستغنى الله﴾ [سورة التغابن/٦].

(مرفوعة) كلمة جامعة لمعنى العلو والمنزلة، كما قال تعالى: ﴿وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾ [سورة الزخرف/٤]. وأيضا، كما قال تعالى: ﴿والقرآن المجيد﴾ [سورة ق/١]. وهذان الوجهان بيان جانب من صفة (مكرمة).

(مطهرة) هذه الصفة أيضا تبين جانبا من صفة التكريم. أي لاتصل إليه أيدي الشياطين والسفلة من الأرواح، كما قال تعالى: ﴿في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون﴾ [سورة الواقعة/٧٨-٧٩]، وكما قال

---

١٣٩ انظر لسان العرب (صحف) .

١٤٠ هي الصحيفة الظالمة التي كتبها قريش لمقاطعة بني هاشم .

تعالى: ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾ [سورة البروج/٢١-٢٢]. ويشبهه: ﴿وإنه لكتاب عزيز﴾ [سورة فصلت/٤١].

(سفرة) هي جمع "سافر": للكاتب والقارئ، من السفر: للكتابة والقراءة. وهذه الكلمة باقية في العبرانية. وأصل معناها: "الخَمْشُ". ومنه: الكتابة. فإن الكتابة كانت أولا بالخمش بقلم الحديد. ثم توسع للبيان والقراءة. في العبرانية: (سفر) : الخمش والقراءة. (سافر) : كاتب، فقيه، إمام، قائد. فصح ما قال قتادة: هم القراء١٤١. روى ابن جريج عن ابن عباس: "السفرة بالنبطية القراء"١٤٢. ويوجد في العربية أيضا بمعنى الخمش، كما قال رؤبة:

تسفير موسى الصلع الجلام ١٤٣

وهكذا بقي في العربية مادة كتب في أصل معناها كما مر.

(كرام) أي جديرين باحتمال هذه الأمانة، فلا يتهمون فيها لشرافتهم.

(بررة) جمع البار: للمطيع والموفي بذمته. فهذا تأكيد تحفظهم هذه الأمانة، كما تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين﴾ [سورة الشعراء/١٩٣] وكما قال تعالى: ﴿إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع

---

١٤١ الطبري ٣٠:٣٤ .

١٤٢ تفسير ابن كثير ٤: ٤٧٢ .

١٤٣ صدر البيت:

بعد الصبا والغزل القيام .

ديوانه: ١٤٤

ثم أمين﴾ [سورة التكوير/١٩-٢١].

ومفاد هذه الجمل بيان رفيع منزلة هذا القرآن، ليتبين أنه لرفعة منزلته وقدسه ليس مما يعرض بهذا الإلحاح على هؤلاء. وهذه الآيات تتضمن أمرا عظيما من وصفه، وهو أنه مكتوب عند الله ومقروء ومحفوظ من كل ريب وشوب.

واعلم أن المراد من الرفع والتطهير والصحيفة أمور الملأ الأعلى. وقد فهمنا المفاد كما بينا. وأما تأويلها وتعيينها وتصويرها فكما يليق بذلك المكان الأعلى.

(قتل الإنسان ما أكفره) (الإنسان) كثيرا ما يراد به الأكثر منهم، وهم الكفار. فإما أن يكون اللام للعهد وإما أن يكون الحكم على النوع حسب أكثرهم، كما قال تعالى: ﴿إن الإنسان لظلوم كفار﴾ [سورة إبراهيم/٣٤]. ومثله كثير.

(قتل) منقول عن الحقيقة. فإنما يراد به إظهار السخط. و(ما أكفره) بيان سبب هذا السخط والإنكار على مسلكه.

(من أي شئ خلقه) استفهام تحقير، وتمهيد لما بعده من ذكر حالة الإنسان.

(نطفة) ماء قليل ترشح، كما قال أبو صعترة البولاني:

فما نطفة من حب مزن تقاذفت   به جنبتا الجودى والليل دامس[١٤٤]

وكما قال تعالى: ﴿ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾ [سورة السجدة/٨].

---

١٤٤ ديوان الحماسة ص ٣٨/٢

ففي نفس هذه الكلم إبطال ما استبعدوه من البعث. فإن أول الخلقة جمع من مواضع شتى، كما قال تعالى: ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون﴾ [سورة الواقعة/٦٢].

(فقدره) أي قدر أعضاءه وقواه كما شاء. ومفاده بيان عجزه، وكمال تصرف ربه فيه، كما قال تعالى: ﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾ [سورة الانفطار/٨]. وفيه أيضا بيان نعمة الرب عليه، لما جعله بهذا التقدير أحسن خلقه، كما قال تعالى: ﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾ [سورة التغابن/٣]. وتفصيله في تفسير سورة والتين.

(السبيل) اللام فيه للعهد. أي السبيل الذي يسلك فيه باستعمال ما قدر فيه من الأعضاء والقوى، فهداه لاستعمالها، وهيأ له الأسباب، كما قال تعالى: ﴿الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى﴾ [سورة الأعلى/٢-٣]. وكما قال تعالى ذكرا لقول موسى عليه السلام: ﴿ربنا الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى﴾ [سورة طه/٥٠].

وإذ علمنا من القرآن والفطرة أن الله تعالى هدى الإنسان وبين له الخير والشر ولم يكرهه من قبل لهذا ولا لذاك، كما قال تعالى: ﴿فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل (أى سبيل الخير لدلالة المحل) إما شاكرا وإما كفورا﴾ [سورة الدهر/٢-٣]. وكما قال تعالى: ﴿ونفس وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دسها﴾ [سورة الشمس/٧-١٠].

وقد علمنا من القرآن وصحيح الخبر وصريح العقل أن التيسير يأتي من الرب تعالى حسبما يختار الإنسان لنفسه من سبيلي الخير والشر، كما قال تعالى: ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى.

وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى﴾ [سورة الليل/٥-١٠]. فالتأويل: أن الله تعالى بعد ما خلق الإنسان وألهمه الخير والشر لم يكرهه بل يسر له ما اختار لنفسه. فجعل أعضاءه وقواه والأسباب طوع إرادته، وهذا من أكبر النعم، كما هو مبسوط في موضعه.

(فأقبره) قبره: دفنه، وأقبره: جعل له قبرا.

(أنشره) نشره: بسطه وبثه. والإفعال للمبالغة، أي أقامه سويا بعد ما كان مقبورا خامدا.

(٩)

نظم هذه الجملة في نفسها وبالسابق واللاحق

بعد ما بين علو منزلة هذا القرآن وترفعه عن المتدنسين أكد شناعة استغناء الإنسان عن هذه النعمة العظمى بذكر كمال عجزه بجنب كمال قدرة الرب تعالى عليه. وهكذا بين شدة شناعة كفرانه بذكر كمال نعمة ربه. ولما تضمن هذا البيان وجوب الإيمان بقدرته والشكر لنعمه أتبعه قوله: ﴿ما أكفره﴾ [الآية/١٧]. أي ما أكبر تكذيبه وكفرانه هذا.

واعلم أن قوله تعالى: ﴿من نطفة﴾ إلى قوله: ﴿فأقبره﴾ [الآيات/١٩-٢١] جامع لبدء حالة الإنسان، ووسطها، وآخرها. فأما بدؤها فإنه مخلوق من ماء قليل ترشح بتقدير الرب الحكيم من أطراف الجسم. وهذا مفهوم من كلمة "نطفة" كما مر ثم جرى عليه تصرف الرب، فهذا بدؤها. وأما وسطها فإنه لا يقدر على شئ مما يريد في تقلباته إلا بتيسير الرب تعالى. وفي هاتين الحالتين ظهور قدرة الرب ونعمته عليه. وأما آخرها فإنه أماته وأقبره. وفيها ظهور كمال عجز الإنسان وكونه بالكلية تحت قدرة ربه. ثم بعد ذكر هذه الأحوال الدالة على الربوبية

والقدرة تبين لزوم البعث للجزاء الذي هو مقتضى ما سبق من دلائل كونه مصنوعا وميسرا في تقلباته في هذا المعاش. وذكر من أحوال الإنسان ما يكون بعد هذه الحياة والممات من النشور إلى ربه.

والآن فتأمل كيف دل على عجز الإنسان وفقره إلى ربه من أول أمره إلى يوم نشره، فما أبعد حاله عن الاستغناء والإعراض عما أنزل إليه ربه من الذكر، وهو أحسن ما يسر له وأنعم به عليه مع أنه مخلوق ومتصرف فيه راجع إلى مولاه القادر الحكيم.

فبعد ما ذكر هذه الدلائل التي في نفسه أعقبها مثلها مما يرى فوقه وتحته وحوله من الدلائل على كونه عبدا مربوبا مرزوقا، ليبين شناعة عصيانه وفجوره كل البيان. فقال عز من قائل حكيم:

﴿كلا لما يقض ما أمره (٢٣) فلينظر الإنسان إلى طعامه (٢٤) أنا صببنا الماء صبا (٢٥) ثم شققنا الأرض شقا (٢٦) فأنبتنا فيها حبا (٢٧) وعنبا وقضبا (٢٨) وزيتونا ونخلا (٢٩) وحدائق غلبا (٣٠) وفاكهة وأبا (٣١) متاعا لكم ولأنعامكم (٣٢)﴾.

(١٠)

تفسير الكلم وتأويل الجمل في الآيات: (٢٣-٣٢)

(كلا) زجر على استغنائه وعصيانه كما يبينه ما بعد ذلك.

(لما يقض) أي هو مستمر في عصيانه إلى الآن.

(ما أمره) عام لما ألهمه فطرة من الشكر لربه والمواساة بالخلق، ولما أنزل إليه بواسطة الرسل من الأوامر والنواهي.

(أنا) موقع الجملات التالية موقع البدل من الطعام. أي فلينظر إلى هذه

الأمور

(**صببنا الماء صبا**) أي أنزلنا ماء كثيراً، كما قال تعالى: ﴿وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا [سورة النبأ/١٤]

(**وشققنا الأرض شقا**) بيان جامع لأربعة معان:

١- لما تفتح الأرض أفواهها فتشرب الماء، فتعيه.

٢- ولما جعل الله في الأرض من الأنهار والبحور. ويؤيده نهره: فتقه، وبحره: شقه.

٣- ولما تنشق الأرض بالنبات فيخرج منها أزواج شتى.

٤- ولما يشقها الحراثون.

وكل هذه المعاني مناسبة ههنا، فأتى بكلمة جامعة.

(**قضبا**) القضب: نبات يؤكل ناعما خضرا، ولذلك تسمى الرطبة قضبا وهو بالفارسية "أسبست" من قضبه: قطعه بصوت مشابه بتلفظ حروف قضب. ويشبهه لفظ "المضغ". والقضب جامع لكل ما يؤكل رطبا.

(**حدائق**) جمع حديقة: للروضة المحاطة. وتطلق على الأشجار أيضا كالنخل والشجر.

(**غلبا**) جمع أغلب: لغليظ العنق. ووصف الحدائق بالغلب إما على كون المراد بالحدائق: الأشجار كما ذكرنا، وإما على وصف الشئ بوصف متعلقه، كما هو الأسلوب الشائع في العربية، أي غلب الأشجار. والأول هو الظاهر، لأن سائر ما ذكر كلها من النبات، ولأن الفعل المتقدم هو "أنبتنا".

(**أبا**) الأب: العشب والمرعى، من أبَّ يَؤُبُّ أبًّا وأَبَابًا وأَبَابَةً: نشأ

وطلع. وهي مادة قديمة جرى فيها تصرف اللسان، فتجدها في صور متشابهة، مثلا: أم وهم، وهب وتأهب. فأب صورة أخرى لِهَبَّ. ولذلك نظائر، مثلا: هَزَّ وأَزَّ، وأَرَاقَ وهَرَاقَ. قال الأعشى:

أخ قد طوى كشحا وأب ليذهبا ١٤٥.

أي هَبَّ وَهَمَّ.

وإنما سمي المرعى "أبا" لنشئه أولا بعد المطر. ومنه: إبان النبات: لأول خروجه. ثم توسع، فقيل: إبان الشباب، لمناسبة ظاهرة. ثم إبان كل شئ: أول وقته. يقال: كل الفواكه في إبانها ١٤٦.

ف ١: وتوهم الجوهري وغيره، فجعل الإبَّان فِعَّالا من مادة "أبن" ١٤٧ ولا مناسبة بينهما. فإن أَبَنَه بشئ: اتهمه به، من الأُبْنَة: وهي العقدة في العود. وإنما هو فِعْلان من "أب" ١٤٨ لما يدل عليه المناسبة بينهما، ولما تجد هذه المادة بهذا المعنى في العبرانية وهي أخت العربية (أب ب) (أب): الخضرة والثمرة. (أبيب): السنبلة الخضراء، وأول شهورهم- وهو الربيع- لظهور النبات فيه أولا.

---

١٤٥ صدر البيت:

صرمت ولم أصرمكم وكصارم

ديوانه: ١٥١ ، واللسان (أبب ، كشح)

١٤٦ انظر لسان العرب (أبن) .

١٤٧ انظر الصحاح واللسان (أبن)

١٤٨ إليه ذهب الإمام الراغب في "مفردات القرآن" والزمخشري في أساس البلاغة (أبب) .

ف ٢: ومما ذكرنا تبين أن هذه المادة مما عرفته العرب. وإنما قل استعمالها في أشعارهم لخفة مرادفاتها. ولكن إذا أريد استعمال كلمة جامعة وحسن موقعها لم تترك، بل تكون أحسن من غيرها. وحسن موقعها ههنا غير خفي ويأتيك زيادة البيان في الفصل التالي.

هذا، فلا يصح ما يروى من أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما اعترفا بجهلهما به ١٤٩ أول هذين الخبرين منقطع ١٥٠.والثاني مضطرب. واليقين بضعفهما من وجوه:

الأول: أن هذه السورة مكية. والصحابة أهم شغلهم تلاوة القرآن، فكيف لم يسألوا النبي ﷺ عن معنى كلمة مع طول مدة الصحبة، وكيف لم يعلمهم النبي ﷺ إياها؟ هل كان القرآن مذهولا عنه حتى إذا توفى النبي ﷺ فقرءوه اطلعوا على عدم علمهم بهذه الكلمة وانتبهوا، فاعترفوا بجهلهم بها.

والثاني: أنا نجد القرآن أسهل وأبين لسانا من عامة أشعارهم

---

١٤٩ كما جاء في رواية عن إبراهيم التيمي أنه قال: سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿فاكهة وأبا﴾ فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن قلت في كتاب الله مالا أعلم" انظر تفسير ابن كثير ٤: ٤٧٤ ، والكشاف ٤: ١٨٦. ورووا عن أنس وغيره أن عمر بن الخطاب قرأ قوله تعالى: ﴿وفاكهة وأبا﴾ وقال فما الأب..." انظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١: ١٣، وانظر أيضا الطبري ٣٠: ٣٨ .

١٥٠ قال ابن كثير: "هذا منقطع بين إبراهيم التيمي والصديق ﷺ" انظر تفسيره ٤: ٤٧٤ وانظر أيضا الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف للإمام أحمد بن حجر العسقلاني ، ملحق الكشاف ٤: ١٨٢.

وخطبائهم، وكانت قريش حكاما على الشعراء في عكاظ. وكان أبو بكر ﷺ من رؤسائهم وخطبائهم، وكان عمر ﷺ لسان قريش وسفيرهم، فلابد أن يكونا أعلمهم بصروف الكلام. وقد علمنا كثيرا من انتقاد عمر ﷺ ما يدل على علو محله في علم اللسان العربي.

والثالث: أن القرآن إنما أنزل بلسانهم عربيا مبينا ليدعى به الناس، ويعقلوه، كما قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ [سورة إبراهيم/٤]. وقال تعالى: ﴿إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾ [سورة الزخرف/٣].

والرابع: أن الوضاعين لم يذكروا ذلك إلا عن أكبر الصحابة وأعلمهم. ونعلم بشدة حنق مبغضيهم واهتمامهم بالطعن فيهما.

(متاعا) المتاع مصدر، ثم اسم لما يتمتع به. ومنه للسلعة. والمتاع يتضمن قلة المدة. فربما يؤكد بالتصريح بها، وربما يكتفي بما يفهم منه، كما قال تعالى: ﴿متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم﴾ [سورة يونس/٧٠] أي تمتع لمدة قليلة. والشواهد على ما ذكرنا كثيرة.

و قوله تعالى: ﴿متاعا لكم﴾ سائغ أن يكون مصدرا، كما في قوله تعالى: ﴿يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى﴾ [سورة هود/٣]. وعلى هذا تأويله: لأجل أن نمتعكم بها، وأن يكون حالا. أي وهذه متاعا لكم. ومآل التأويلين واحد. والأول أدل على الربوبية والإنعام، لصراحة دلالته على إرادة الرب أن يمتعهم.

(١١)

نظرة في نظم ما ذكر من أسباب الطعام والمتاع

نوجهك إلى أمثال هذه الآيات في ثلاث سور سابقة. فإن هذه

السور الأربع متشابهات في مطالبها. ولكل موقع أسلوب جديد من الإيجاز والتفصيل والترتيب، فإن الكلام ذو أفانين. ونذكر ههنا ما يليق بهذا المقام.

فاعلم أن في هذه الآيات تقديم الأقدم فالأقدم، واختيار التفصيل والاستقصاء مع الإيجاز. وبيان ذلك أنه تعالى ذكر أولا ما يسقى كثيرا وهو سريع الإخراج برزقه. فلو لا صب الماء الكثير من السماء لم يحصل للإنسان ما هو أكبر قوام عيشه. وذلك ثلاثة أصناف: حب، وثمر، وما يؤكل رطبا من الخضراوات والبقول. فقدم الحب لكونها أكبر الطعام وأجمع لما يعيش به الإنسان، وأعظم الغلات المدخرة. ثم ذكر العنب وهو رأس الأثمار، ثم هو مما يدخر زبيبا، ويشرب نبيذا طيبا. وقد عرفت العرب ذلك، فقال أعشى قيس:

فأروى الزروع و أعنابها   على سعة ماؤها إذ قسم

فذكر الزروع ثم العنب وذكر سقيهما إتماما لما يجمعهما من لزوم الاهتمام لهما. ثم ذكر القضب، وهو جامع لكل ما يؤكل رطبا، كما قال تعالى: ﴿لنخرج به حبا ونباتا﴾ [سورة النبأ/١٥]. فأكمل هذا النوع الكثير السقى السريع النفع.

وذكر ثانيا ما هو بطئ الإخراج بأكله، ويسقيه السماء. وذلك قسم الأشجار كلها. فقدم الزيتون لكونه مباركا ولكونه أخص الغلات، كما سنذكر. ثم ذكر النخل وهو للعرب قوام ولذة معا، فهو حبهم وعنبهم. ثم أكمل هذا النوع بما يستوفي أشجار الثمر الغلاظ الجذوع.

ويشبه ما ذكرنا ما جاء في التوراة، فإنها تذكر من غلات الأرض: الحب، والعنب، والزيتون (تثنية ص: ٢٤ ف ١٩-٢١). أيضا (ص: ٢٨ ف ٣٨-٤٠). وإنما ترك النخل لأن أرض الشام لم تكن بأجود منابتها.

فأما العرب فالتمر هو جل غلاتهم. ولذلك ربما تذكر مع الزرع، كما في قوله تعالى: ﴿في جنات وعيون ۞ وزروع ونخل طلعها هضيم﴾ [سورة الشعراء/١٤٧-١٤٨]. أيضا: ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد. والنخل باسقات لها طلع نضيد﴾ [سورة ق/٩-١٠]. أيضا: ﴿وجنات من أعناب وزرع ونخيل﴾ [سورة الرعد/٤]. فهذان القسمان استوفيا جل ما يزرعه الإنسان ويغرسه.

فبعد ذلك ذكر ثالثا ما يستوفي الباقي من نبات الأرض. فأتى بكلمتين جامعتين، وهما: الفاكهة والأب. الأولى للإنسان والثانية للأنعام، كما صرح ذلك بقوله: ﴿متاعا لكم و لأنعامكم﴾ [سورة عبس/٣٢]. فترى في هذا النظم أسلوب الاستدراك بما يستوفى الباقي. وهذا كثير في القرآن، كقوله تعالى: ﴿بما تبصرون وما لا تبصرون﴾ [سورة الحاقة/٣٨-٣٩]، وكقوله تعالى بعد ذكر أسماء الرسل: ﴿ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك﴾ [سورة النساء/١٦٤]، وكقوله تعالى بعد ذكر حاملات الأثقال من الخيل والبغال والحمير: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ [سورة النحل/٨].

(١٢)

نظم هذه الجملة بالسابق واللاحق

لا يخفى أن خلاصة هذا الذكر أن الله تعالى رزقنا ورزق أنعامنا، فكلنا عيال عليه. وأنعامنا مذللة تحت أيدينا مع أنها تأكل مثلنا من رزق الله، فما أشنع بنا أن نعصى الرب تعالى.

هذا، ونظير هذا الذكر قد مر في السورة السابقة فلا نعيد ما قدمنا

هناك. ولكن نذكر ههنا بقدر ما يبين ربط هذه الجملة بالسابقة واللاحقة.

فاعلم أن السابقة تذكر شناعة استغنائه من جهة كفره وإنكاره، وهذه تذكر شناعة استغنائه من جهة فجوره وعصيانه. و في كلتا الجملتين دلالة واضحة على الربوبية وعلى البعث. وكل ذلك يهدى إلى الإيمان بالجزاء.

وأيضا ما ذكر من أمر طعامه ومتاعه مثل جامع لهذه الحياة والآخرة، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون. إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾ [سورة يونس/٢٣-٢٤]. فلما كان ذلك كذلك أتبع هذا الذكر ذكر يوم الجزاء. وأيضا من أسلوب القرآن أن يأتى بالترغيب والترهيب مع الدلائل، فقال عز من قائل حكيم:

﴿فإذا جاءت الصاخة (٣٣) يوم يفر المرء من أخيه (٣٤) وأمه وأبيه (٣٥) وصاحبته وبنيه (٣٦) لكل امرئ منهم يومئذ شان يغنيه (٣٧) وجوه يومئذ مسفرة (٣٨) ضاحكة مستبشرة (٣٩) ووجوه يومئذ عليها غبرة (٤٠) ترهقها قترة (٤١) أولئك هم الكفرة الفجرة (٤٢)﴾.

(١٣)

تفسير الكلم والجمل في آيات (٣٣-٤٢)

(الصاخة) صخّ سمعه: أصمه. وسميت القيامة صاخة لصيحتها الأولى، ولهو لها المذهل، كما قال تعالى: ﴿يوم تذهل كل مرضعة عما

أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى﴾ [سورة الحج/٢] ولذلك يقال للداهية العظيمة: "لا ينادى وليدها". فالصاخة جامعة لمعنيين. وصراحة دلالتها على المعنى الأول أغنت عن بيان زائد. و أما المعنى الثاني فبينه بما بعدها إلى قوله تعالى: ﴿لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ [الآيات/٣٤-٣٧].

(**يفر**) إنما هو كناية عن هول ذلك اليوم، فيذهل بعضهم عن بعض، كما بينه بما بعده.

(مسفرة) مضيئة. من "أسفر الصبح"، وذلك كناية عن أول ظهور المسرة. ويفسره ما بعده.

(ضاحكة) إنما هي كناية عن المسرة، كما يفسرها ما بعدها. والضحك ههنا هو البشاشة بما وجدوا من الأمن وقرب الحسنى.

(مستبشرة) بما أيقنوا من النعيم العتيد لهم.

(عليها غبرة) جاء بمقابلة "مسفرة"، وكنى به عن الذلة و الغم، كما قال تعالى: ﴿ولا يرهق وجوهم قتر ولا ذلة﴾ [سورة يونس/٢٦]، وكما قال امرؤ القيس:

عليه القتام سئ الظن والبال [151]

(ترهقها قترة) أي يعلوها السواد. و"القترة" أشد من "الغبرة". أي تغشاها غبرة ثم يعلوها سواد. وقوله تعالى: ﴿عليها غبرة ترهقها قترة﴾

---

١٥١ صدر البيت:

فأصبحت معشوقا وأصبح بعلها

ديوانه: ٣٢ .

[الآيتان/٤٠-٤١] جاء بمقابلة ما سبق من قوله تعالى: ﴿مسفرة ضاحكة مستبشرة﴾ [الآيتان/٣٨-٣٩]. وهذان كما جاء قوله تعالى: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ [سورة آل عمران/١٠٦].

(الكفرة الفجرة) المنكرون لآيات الله، الجاحدون بنعمه، والآثمون العصاة لأوامره. فهاتان الكلمتان جامعتان لما فصل فيما سبق من ذكر كفر الإنسان وفجوره واستغنائه.

(١٤)

نظرة فيما دل عليه نظم السورة من الحكمة

في ذكر خلال الخير والشر

القرآن لا يترك مراعاة الحكمة في نظم ما يذكر من الأمور. فاعلم أن السورة ذكر خلال الخير والشر على سبيل المقابلة.

أما الأولى فالتزكي، والتذكر، والخشية. و أما الثانية فالاستغناء، والكفر، والفجور. والترتيب في الأولى نازل، لأن الصالحين يجرون إلى غاية. فالغاية أول شئ في نظرهم. والترتيب في الثانية صاعد، لأن الفاسقين لا يعلمون إلى ما يجرون إليه. فذلك سبب الاختلاف بين الترتيبين.

وأما بيان ما ذكرنا من رعاية الترتيب، فلا يخفى أن الخشية أصل الفلاح، وهي الباعثة على التذكر. والتذكر يهدى إلى التزكى وهو المقصود. وكذلك الاستغناء أصل الفساد، وهو الباعث على الكفر بالحق الواضح. والكفر يهدى إلى الفجور. وعلى ما ذكرنا من ترتيب هذه الصفات شواهد جمة في القرآن، وقد مر في مواضع فلا نعيده. ومن يمارس يطلع.

(١٥)

نظرة في نظم جملات السورة بتمامها

قد تبين مما تقدم أن أول السورة في تشنيع المستغنين الكافرين الفاجرين على سبيل التعريض، لينتبهوا. وهذا إلى عشر آيات. فأتبع هذه الجملة ذكر علو منزلة هذه التذكرة المكرمة المرفوعة المطهرة بأيدي الملائكة الكرام. وقد أنزلها الله لعباده فضلا عليهم فلا تليق بالمعرضين عنها، الكارهين سماعها. وهذا إلى ست عشرة آية.

ثم أتبعها جملتين، وذكر فيهما من نعمه وقدرته ما يوضح مهانة الإنسان وضعفه وفقره إلى ربه، لتتضح شناعة كفره وفجوره. أما الجملة الأولى فتذكر النعم التي في نفس وجوده. وهي إلى اثنتين وعشرين آية.

وأما الجملة الثانية فتذكر النعم التي تحفه، وبها بقاؤه. وهي إلى اثنتين وثلاثين آية.

وبدأ الأولى بقوله: ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾ [الآية/١٧]، وبدأ الثانية بقوله: ﴿كلا لما يقض ما أمره﴾ [الآية/٢٣]، أي ما أشد الكفر ممن هو نفسه شهادة على عبوديته وفقره ورجوعه إلى دار الجزاء والحساب، وما أشنع طول عصيان من لا يطول عيشه إلا برزق من ربه متوال، وهو يرى ذلك عيانا. فذكر الكفر والفجور معا، كما يذكر الإيمان وعمل الصالحات حسب ترتيب عقلي. فإن الأعمال تابعة للعقائد والأخلاق، كما قال تعالى: ﴿أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم﴾ [سورة الماعون/١-٢]. وهذا كثير في القرآن.

هذا، وخلاصة معنى الجملتين: إن الإنسان يرى في نفسه نعم خالقه القادر، ثم يستغني عنه وينكر بأن يحاسبه فيبعثه، فما أكفره ؛ أهو كافر

بقدرته أم بنعمته ؟ أفيريد أن ينعم عليه ويترك سدى ؟ ثم يرى فيما حوله نعم ربه الرازق ثم يعصيه، فما أفجره !

وإلى هذين الطرفين من فساد حالهم يشير ما جاء في آخر هذه السورة من قوله تعالى: ﴿أولئك هم الكفرة الفجرة﴾ [الآية/٤٢].

ثم بعد ما بين فقر الإنسان وجريان نعمة الرب وقدرته عليه حان أن يذكر فقره بعد هذه الحياة يوم يذهب عنه كل ما كان سببا لغفلته واستغنائه وكفره وفجوره. وذكر ذلك إلى سبع وثلاثين آية. فألحق ذكر القيامة بما مهد لها من الدلائل، وهكذا ألحق ذكر البعث بما كان دليلا عليه في الجملة الأولى.

فكما جاء بعد ذكر خلقة الإنسان قوله تعالى: ﴿ثم إذا شاء أنشره﴾ [الآية/٢٢]، فهكذا بعد ذكر رزقه جاء قوله تعالى: ﴿فإذا جاءت الصاخة﴾ [الآية/٣٣] فإن الإنسان إذا تذكر خلقته تبين له قدرة خالقه على نشره، وإذا تذكر ادرار رزقه عليه تبين له لزوم الحساب ووقوفه بين يدي مولاه ومربيه.

ويشبه هذا الأسلوب ما جاء في سورة المرسلات من قوله تعالى: ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون. ويل يومئذ للمكذبين (أي المكذبين بالبعث) ألم نجعل الأرض كفاتا. أحياء وأموتا. وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتا. ويل يومئذ للمكذبين﴾ [الآيات/٢٠-٢٨]. أي بالجزاء. ولذلك نظائر أخر.

ثم بعد ذكر غاية فقر الإنسان، وشناعة استغنائه وكفره وفجوره ختم السورة بذكر مآل الفرقتين: الخاشية المتزكية، والكفرة الفجرة، كما

بدأ السورة بذكرهما. وذلك إلى اثنتين وأربعين آية، وهي تمام السورة.

فانظر كيف جعل سياق هذه السورة لذكر شناعة استغناء الإنسان مع كمال فقره واحتياجه إلى ما يسر له الرب من نعمه السوابغ، لا سيما هذه التذكرة التي هي أعظم ما رزقه به. وأخرج جملة هذا البيان مخرج التنبيه لنبيه على أن لا يلح على هؤلاء المستغنين، ويشتغل بالذين هم أحقاء بهذه النعمة العظمى.

هذا آخر ما تيسر لنا ذكره في هذا المقام. والحمد لله رب العالمين والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

تفسير سورة عبس

فهرس مطالب الفصول